علم الله تعالى بالجزئيات

إعداد الدكتورة

أسماء حسن أبوعوف

باحثة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ..

وكما هو معلوم لنا ومعروف في الإسلام، أن الله تعالى يعلم ، فهو يعلم ذاته ، ويعلم غيره ، وغيره يشمل العالم وما يجرى فيه من أحداث ، فعلمه إذن شامل لذاته ولغيره ، ومحيط بكل كائن. فالعلم الحق هو معرفة الله تعالى ، وسائر الموجودات على ما هي عليه وبخاصة الشريفة منها ، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي .

والله سبحانه وتعالى عالم ، إنه عالم الغيب والشهادة ، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [١] .

فهذا بحث عن "علم الله تعالى بالجزئيات" والأسباب التي دفعتني لكتابة هذا البحث :

(١) سورة الرعد ، الآيات ٨ - ١٠ .

أن هذه هي المسألة الثانية من المسائل الثلاث التي يكفر الغزالي الفلاسفة من أجل قولهم بأن الله لا يعلم الجزئيات المشخصة، وهم بذلك متابعون لأرسطو لأنه قال بذلك، ومعلوم أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي صرح بتكفيرهم في كتابه (تهافت الفلاسفة)، ولما جاء ابن رشد الفيلسوف الإسلامي الأندلسي ردًّا على الغزالي لينتصر للفلاسفة في كتابه المسمى (تهافت التهافت) وقال فيه :

إنهم يقولون بأن الله تعالى يعلم الجزئيات ، ولكن بعلم مغاير لعلمنا ، فعلمنا معلول عن الجزئيات ، أما علم الله تعالى فهو علة لهذه الجزئيات .

ومن الأسباب التي حفزتني لدراسة هذه القضية أن أبيّن مدى فهم الفلاسفة الإسلاميين لهذا العلم ، وبالأخص الفلاسفة الذين أنكروا علم الله بالجزئيات ، وذلك لأنهم يرون أن الله سبحانه وتعالى عقل محض ، وينطلقون من هذا الفهم ويستدلون ببعض الآيات الكريمة التي تقرر عموم علمه سبحانه وتعالى بكل الجزئيات لأنهم متأولون وأصحاب فهم خاص في المسألة ودفعهم إليه إيمانهم العميق بقضية التنزيه الإلهي .

ومن المأثور أن الحقيقة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، وأنها ليست سهلة المنال قريبة المأخذ إلا أن يسعى الإنسان ويكدح في الوصول إليها وهذا هو المنهج لموضوعي للبحث ، والجدة في منهج البحث تتبعها جدة العرض والتصوير ، والاختلاف في عرض الموضوع وتصويره ، لا الموضوع نفسه. ولهذا قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وفصلين ، وكل فصل يشتمل على عدة مباحث ، ثم خاتمة .

وذكرت في المقدمة التي نحن بصددها الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا البحث ، والمنهج الذى اتبعته ، ثم ذكرت في التمهيد معنى كلمة علم ، ومعنى كلمة جزئيات، ثم تحدثت في الفصل الأول عن رأى الفلاسفة المشائيين والعلم الإلهي ويشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث هي :

المبحث الأول : رأى الفارابي في علم الله بالجزئيات وذكرت أولاً نبذة مختصرة عن حياته ، ثم عرض رأيه في القضية .

المبحث الثاني : رأى ابن سينا ، وذكرت أولاً نبذة مختصرة عن حياته ثم عرضت رأيه في قضية علم الله بالجزئيات .

المبحث الثالث : رأى الغزالي وفهمه للمسألة وذكرت قبل عرض رأيه نبة مختصرة عن حياته ثم عرضت فهمه للمسألة .

المبحث الرابع : رأى ابن رشد في علم الله بالجزئيات وذكرت نبذة مختصرة عن حياته قبل عرض رأيه في القضية .

أما الفصل الثاني فهو يشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: رأى المستشرقين في العلم الإلهي وفيه تعرضت لرأى الخوجه زادة، وأنه كان صريحًا واضحًا في رده على الغزالي ، ثم رأى توماس الأكويني.

ويأتي المبحث الثاني وهو : رأى الإسلام في علم الله بالجزئيات .

ثم الخاتمة وأهم المراجع .

وأسأل الله التوفيق .

تمهيد

أولاً : معنى علم في اللغة والاصطلاح :

ثانيًا : معنى جزئيات – جمع جزء – في اللغة والاصطلاح .

أولاً : معنى علم في اللغة

عِلْمٌ ، بالكسر : عَرَفَهُ ، وعِلِمَ هو في نفسه . . . وعِلِمَ ، كَفَرِحَ ، فهو أُعْلَمْ (١) .

ومعنى العلم في الاصطلاح :

قال الجرجاني : العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، وقال الحكماء : هو حصول صورة الشيء في العقل ، والأول أخص من الثاني ، وقيل العلم هو إدراك الشيء على ما هو به ، وقيل زوال الخفاء من المعلوم ، والجهل نقيضه ، وقيل هو مستغنى عن التعريف ، وقيل العلم صفة راسخة يدرك بها الكليات والجزئيات . . .

ثم قال العلم : ينقسم إلى قسمين : قديم ، وحادث ، فالعلم القديم هو العلم القائم بذاته تعالى ، ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد ، والعلم المحدث ينقسم إلى ثلاثة أقسام : بديهي وضروري واستدلالي .

فالبديهي: ما لا يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بوجود نفسه، وأن الكل أعظم من الجزء.

والضروري : ما لا يحتاج فيه إلى تقديم مقدمة كالعلم الحاصل بالحواس الخمس .

(١) القاموس المحيط ، الفيروزآبادى ، صـ ١١٤٠ ، باب الميم ، فصل العين .

والاستدلالي : ما يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بثبوت الصانع وحدوث الاعراض.

ووضح أنواعًا للعلم فقال :

العلم الفعلي : ما لا يؤخذ من الغير .

العلم الانفعالي : ما أخذ من الغير .

العلم الإلهي : علم باعث عن أحوال الموجـودات التي لا تفتقر في وجودها إلى المادة .

العلم الإلهي : هو الذى لا يفتقر في وجوده إلى الهيولي [١] .

ومن التعريفين الأخيرين يتضح لنا المقصود من عنوان البحث ، وهو لا يعزب عـن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

ثانيًا : معنى جزئيات : (جمع جزء) :

فى اللغة: الجزء : البعض [٢] .

ومعنى جزء في الاصطلاح: عرفه الجرجاني وقال :

الجزء: ما يتركب الشيء منه ومن غيره ، وعند علماء العروض عبارة عما مـن شـأنه أن يكون الشعر مقطعًا به .

---

(١) راجع التعريفات، السيد الشريف الجرجاني، تحقيق وتعليق د/عبدالرحمن عميرة،ص٢٠٠،٢٠١،بـاب العين، فصل اللام .

(٢) القاموس المحيط ، الفيروز أبادى ، صـ٣٦ ، باب الهمزة ، فصل الجيم .

الجزء الذى لا يتجزأ: جوهر ذو وضع لا يقبل الانقسام أصلاً، لا بحسب الخارج ولا بحسب الوهم ، أو الفرض العقلي. تتألف الأجسام من أفراده بانضمام بعضها إلى بعض كما هـو مذهب المتكلمين (١) .

وبعد أن مهدنا بتعريف العلم والجزء إتمامًا للفائدة العلمية فلنبدأ بصلب الموضوع ، وهو آراء من فلاسفة المشرق في العلم الإلهي في الفصل الأول وسوف يمثلهم الفارابي وابن سينا ثم من فلاسفة المغرب ابن رشد ثم عرض لرأى الغزالي .

(١) التعريفات ، الجرجاني ، صـ١٠٧ ، باب الجيم ، فصل الزاي .

الفصل الأول
الفلاسفة المشائيون والعلم الإلهي

المبحث الأول
من فلاسفة المشرق

أولاً : رأى الفارابي :
نبذة مختصرة عن حياته :

هو محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي، ولد بمدينة فاراب- مدينة في اقليم خراسان التركي- نحو سنة ٢٥٩هـ/٨٧٠م، دخل العراق واستوطن بغداد واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه، وصار أوحد زمانه، وشرح الكتب المنطقية، وأظهر غامضها وكشف سرها منبهًا على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعاليم، وفى سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١ م انتقل إلى دمشق ثم اتصل بسيف الدولة الحمدانى صاحب حلب، فضمه إلى علماء بلاطه، وتوفى الفارابي سنة٣٣٩ هـ/٩٥٠م، وله من العمر ثمانون عامًا[1].

---

(١) راجع دائرة المعارف جـ٢ صـ٤ / ٨ ، طبعة الشارقة . ط الأولى ، وانظر كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة . أبو نصر الفارابي صـ١١ ، ١٢ ، قدم وعلق عليه د / ألبير نصرى نادر من أساتذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية ، الطبعة الخامسة . دار المشرق – بيروت .

مكانتـه :

يقول ابن خلكان : "الفارابي أكبر فلاسفة المسلمين على الإطلاق ، فقد أنشأ مذهبًا فلسفيًا كاملاً ، وهو الذى أخذ عنه ابن سينا وعده استاذًا له ، كما أخذ عنه ابن رشد وغيره من فلاسفة العرب ، وقد لقب بحق " المعلم الثاني " على اعتبار أن أرسطو هو " المعلم الأول " [(١)] .

مؤلفاته :

يذكر القفطي: أن الفارابي اشتهر بشرحه لمؤلفات أرسطو، مما أكسبه صفة المعلم الثاني، وله كتب في علم النفس والإلهيات، والطبيعيات، والأخلاق وما بعد الطبيعة .

وأشهر كتبه المصنفة هي: كتاب "الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس"، كتاب "تحصيل السعادة"، كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة"، كتاب "السياسات المدنية"، كتاب "الموسيقى الكبير"، "إحصاء العلوم"، "رسالة في العقل"، "عيون المسائل" .. إلخ [(٢)] .

عرض رأيه في القضية :

يقول الفارابي في كتابه " نصوص الحكم " أنه سبحانه وتعالى يعلم الجزئيات الشخصية على وجه شخصيتها .

(١) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، جـ٢ صـ١٠٠ وما بعدها من طبعة بولاق سنة ١٨٩٩.

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، جمال الدين القفطي ، صـ١٨٢ وما بعدها .

ونص عباراته :

" علمه الأول لذاته لا ينقسم وعلمه الثاني عن ذاته إذا تكثر لم تكن الكثرة في ذاته بل بعد ذاته . ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ الأنعام ٥٩ .

وله أيضًا قوله :

" ليس علمه بذاته مفارقًا لذاته بل هو ذاته وعلمه بـ " الكل " صفة لذاته ليست هي ذاته بل لازمة لذاته وفيه الكثرة المتناهية بحسب كثرة المعلومات غير المتناهية وبحسب مقابلة القوة والقدرة الغير متناهية فلا كثرة في الذات [١] .

ونرى الفارابي يشترك مع ابن سينا – سيأتي رأيه – في أن علم (الأول) بالغير لا يحدث كثرة في ذاته ولو بالاعتبار ، وإن تكثر هذا العلم بعد ذاته .

وبذلك نرى أن الفارابي حاول التوفيق بين رأيه وبين ما جاء به الدين الحنيف ، لأنه اعتقد أن الذى حمل أرسطو على أن الله لا يعلم سوى ذاته هو إفراطه في تتريه المحرك الأول عن الاتصال بنقائص العلم الحسى ، لذلك فقد قصر العلم الإلهي على الكليات فقط لأنها ثابتة لا تتغير ، ونفى عنه العلم بالجزئيات .

(١) نصوص الحكم، الفارابي، ص١٣٥، ١٧٢ (بتصرف)، نقلاً عن الجانب الإلهي د/محمد البهي. مكتبة وهبة، ط السادسة سنة ١٩٨٢ م .

المبحث الثاني

رأى ابن سينا

نبذة مختصرة عن حياته :

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا ، الملقب بالشيخ الرئيس. والده من أهل بلخ ، انتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور ، ثم انتقل إلى قرية " افشنة " بالقرب من بخارى حيث تزوج وأنجب هناك أبا على (ابن سينا) عام ٣٧٠ هـ – ٩٨٠ م ، وبعد ذلك انتقلت العائلة إلى بخارى . وهناك درس ابن سينا القرآن وتعلم الأدب ، وكان يحضر مجلس والده ويتتبع ما يدور فيه من حديث حول المسائل الفلسفية والرياضية من هندسة وحساب الهند . ثم درس ابن سينا الفلسفة على يد أبي عبد الله الناتلى ، فبرع ابن سينا في هذا الفن حتى أُعجب منه أستاذه ، وبعد ذلك أخذ يطالع الكتب الخاصة بالعلوم الطبيعية والإلهية ، وأخيرا درس الطب وبرع فيه ، وتوفي سنة ٤٢٨ هـ – ١٠٣٧ م وله من العمر ٥٨ سنة .

مؤلفاته :

له مؤلفات عديدة أشهرها : الإشارات والتنبيهات، والشفاء والنجاة وغيرها [1] .

(١) راجع دائرة المعارف ج١ص٢٠٣-٢١٠،وانظر إخبار العلماء بأخبار الحكماء،القفطى،ص٢٦٩وما يليها

رأى ابن سينا :

أن التعبير المألوف لابن سينا عن " الله – الواجب الوجود " يعقل ذاته . وكونه يعقل ذاته لا يضر ناحية الفلسفة ولا جانب الدين فيما أتى به كل واحد منهما في شأنه ، ولم يكن عند ابن سينا وغيره من فلاسفة المسلمين المشائيين من سبيل إلى إبعاد فكرة واجب الوجود وإبعادها عن دائرة التفلسف الإسلامي والجدل العقلي حول الله ، ولم يستطع أن يتخلى عن الاعتقاد بعلم الله للعالم وأحداثه ، لأنه مسلم ، ومسلم مدافع ، حمله دفاعه عن الإسلام أن يستعير من غير الإسلام مما ظنه مصدر حجة وبرهان أمام العقل الإنساني العام ، ليستعين بما يستعيره في تأييد الإسلام ! فإذا وضح ابن سينا أن امتداد علم الأول إلى ما وراء ذاته لا يحدث في الذات تغيرا ، ولا يحدث فيها تكثرًا ، ولا يخرج بها عن تمامها واستقرارها فيجعلها متجددة تبعًا لتجدد علمها بما يقع وراءها في عالم الكون والفساد .

إذا وضح ابن سينا ذلك كان موفقًا في توفيقه بين رغبته العقلية – وهى الفلسفة – وبين إيمانه القلبي – وهو الدين – ولكن كيف يساوى علم الأول بما وراء ذاته علمه بذاته في أنه لا يترتب عليه إحداث الكثرة والتغير فيها ؟ وكيف يكون علمه بغيره هو نفس ذاته ويتساوى في ذلك مع علمه بنفسه ؟ [(١)]

ويتخذ ابن سينا لمحاولاته هذه خطوتين :

(١) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، د/ محمد البهي ، صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ (بتصرف).

يبين أولاً :

أن "الأول" عقل، ويعقل ذاته، وأنه بكونه عقلاً ومعقولاً لذاته وعاقلاً لها، لا يتكثر ولو بالاعتبار [(١)] .

وهذه الخطوة وهى أن كونه عاقلاً، وأنّ ذاته موضوع عقله تعتبر كمقدمة لفهم: أن علم "الأول" بالغير لا يوجب في ذاته كثرة ولا يحدث فيها تغيرًا بوجه من الوجوه ، لأنها أوضحت أن كونه عقلاً، واتخاذ ذاته موضوع تعقله لم يخرجه عن بساطته في الماهية[(٢)].

ويبين ثانيًا :

أن " الأول " يعلم الغير ، وأن علمه بالغير وما سواه على وجه كلى ، ثم أوضح أخيرًا أن ذاته مبدأ علمه بالغير ، وليس العكس وهو : أن هذا الغير مصدر علمه ، ولذلك لا يخالف علمه ذاته ، ولا تغاير بينهما ، فعلمه عين ذاته .

ولذلك فيقول ابن سينا : (فالواجب الوجود يجب أن لا يكون علمه بالجزئيات علمًا زمانيًا ، حتى يدخل فيه الآن والماضي والمستقبل فيعرض لصفة ذاته أن تتغير ، بل يجب أن يكون علمه بالجزئيات على الوجه المقدس ، العالي عن الزمان والدهر ، ويجب أن يكون عالمًا بكل شيء ، لأن كل شيء لازم له بوسط أو بغير وسط، يتأدى إليه بعينه قدره الذى هو تفصيل قضائه الأول تأديًا واجبًا إذ كان ما لا يجب لا يكون كما علمت) [(٣)] .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ، ابن سينا ، جـ١ صـ٢١٣ .

(٢) النجاة ، ابن سينا ، صـ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٣) الإشارات والتنبيهات ، لابن سينا ، جـ٢ صـ٧٦ ، ٧٧ .

وفى هذا النص لابن سينا في مسألة علم الله بالجزئيات ، يرى أن العلم بالجزئيات يقع على وجوه :

١- قد يكون علمًا بها بوجه كلى .

مثال : أن أعرف أنه كلما تعرض القمر بين الشمس وبين سكان الأرض، انكسفت الشمس، فإن علمي بالكسوف حال ثابتة في النفس لا تتغير، ولا تتبدل ما دامت وسائل التذكير بها قائمة .

٢ - قد يكون علمًا بها من حيث هي جزئية .

مثال : أن يتأتى لي أن أكون ناظرًا إلى الشمس ، وهي مشرقة نيرة ، ثم أفاجأ بأن تحتجب عنى ، ثم ما أزال ملاحظًا حتى تعود إلى الظهور كما كانت .

فنجد هنا أن علمي بالكسوف هو حال نفسيه ، عرضت بعد أن لم تكن ، ثم زالت بعد أن كانت .

ويلاحظ أن سبب تتابع الصور على نفسى في هذا المثال ، هو أنى فوجئت بوقوع الكسوف ، ولم أكن أعلم مدته ، فأكون قد فوجئت أيضًا بزواله .

ولكن لو أنى كنت أعلم من قبل أن الكسوف سيقع ساعة كذا ، ومستمر مدة كذا ، ثم يزول ، فلو حان الوقت المحدد ، وأنا غير غافل عن علمي السابق هل تتوارد على نفسى صور كما تتابعت في حال المفاجأة ؟

في رأيي أنها في هذه الحال أيضًا تتابع ما دام العلم صورة من الواقع تقوم بنفس العالم .

فالصورة العلمية الجزئية لابد أن تساير الواقع ، وما دام الواقع يتغير ، فلابد أن تتغير صورته تبعًا له .

ونجد ذلك في حالة الكسوف، كانت الصورة العلمية في نفسى، أن الكسوف غير واقع، فلما جاء الوقت ووقع الكسوف، أصبحت الصورة العلمية عندي، أن الكسوف واقع، فإذا انتهى الوقت، وزال الكسوف، أصبحت الصورة العلمية عندي، أن الكسوف زال.

فنرى أن ابن سينا حين يقسم العلم الجزئي إلى أنحاء: إنما يقصد إلى أن يتبين النحو الذى لا يؤدى إثباته لله إلى أن يتسبب في جعل ذاته تعالى عرضه لتبدل أحوال مختلفة عليها.

وقد أوضح ابن سينا ما يكون من أنواع التغير خطيرًا، وما يكون غير خطير. في هذه الأمثلة التغير في صفة الشيء نفسه .

المثال الأول :

أن يكون الشيء أبيض ثم يسود ، وهذا تغير في صفة الشيء نفسه، لأنه هو نفسه كان أبيض ثم أسود، ومثل هذا التغير، لا يجوز على الله، وهو تغير في صفة ليست بذات إضافة.

المثال الثاني :

هو التغير في الصفة والإضافة معًا. كأن يكون الشيء موجودًا ، ويعلمه العالم موجودًا ، ثم يعدم الشيء ، فيعلمه العالم معدومًا ، لكى يكون علمه مطابقًا للواقع .

ففي هذا المثال تتوارد صور مختلفة على ذات العالم ، لذلك ينزه ابن سينا ذات الله عن العلم بحالي الوجود والعدم ، اللذان يتواردان على الجزئي .

المثال الثالث :

أن يكون التغير في الإضافة فقط . كأن يكون الشيء قادرًا على تحريك جسم من الأجسام مثلاً ، فلو فرض أن هذا الجسم أعدم ، فلا يقال في تلك الحال إن الشيء قادر على تحريك ذلك الجسم ، لأن تحريك المعدوم مستحيل ، والقدرة لا تتعلق بالمستحيلات ، فقد أنتقل

الشيء من حال القادر على تحريك الجسم ، إلى حال غير القادر ، وهذا تغير في إضافة الشيء لا في ذاته .

يرى ابن سينا أن هذا النوع من التغير ، لا مانع أن يحدث لله تغير من هذا القبيل ، لأنه تغير في الإضافة المحضة ، لا في صاحب الإضافة .

وبعد أن عرض ابن سينا هذه الأمثلة لنتبين أي أنواع التغيرات يؤدى إلى التغير الممنوع ، وأيها لا يؤدى إلى التغير الممنوع .

ويقرر ابن سينا النوع الذى لا يرى به بأسًا ، هو علم الجزئي على نحو كلى .

مثال: أن تعرف أن بين كون القمر في موضع كذا ، وبين كونه في موضع كذا ، يكون كسوف معين بهذا القدر من العموم فقط .

ومن خصائص هذا النوع من العلم ، أن صاحبه لا يعلم الجزئيات .

لذلك يقول ابن سينا :

(حتى إنه إذا كان عالمًا بمعنى كلى، لم يكف ذلك في أن يكون عالمًا بجزئي جزئي) .

ويقول :

(إنه ربما وقع الكسوف من غير علم بأنه وقع أو لم يقع) .

والحجة التي يستند عليها ابن سينا في نفى العلم الجزئي عن الله، هي أن العالم حين يربط نفسه بالواقع المتغير، تبدأ الصور المتغيرة تتوارد عليه، وهذا هو الخطر الذى يتحاشاه ابن سينا

ولكى يظل العالِم بعيدًا عن التغير، ينبغي أن يقف عند حد الأمر العام دون تنزل إلى جزئيات تطبيقه[١].

لذلك لقد رأى ابن سينا أن الله يعلم الأشياء الجزئية بعلم كلي .

أي أنه يعلم القوانين العامة فقط، دون أن يتعلق علمه سبحانه بكل حادثة جزئية على حدة.

وتبريراً لهذا الرأي الغريب ، فقال إن علمه تعالى لا يمكن أن يتعلق بالأمور الحادثة ، لأن كل ما لا يخلو عن الحوادث ، فهو حادث كذلك [٢] .

لذلك زعم أنه يعلم الأشياء علمًا كليًا ، أي يعلم الجزئيات بنوع كلى .

مثال: هو أن الشمس مثلاً تنكسف بعد أن لم تكن منكسفة ، ثم تنجلى فيحصل له ثلاثة أحوال – أي الكسوف :

١ – حالة هو : فيها معدوم ، ولكنه كان منتظر الوجود أي سيكون .

٢ – حال فيها : موجود أي هو كائن .

٣ – حال ثالثة فيها : معدوم ولكنه كان من قبل .

وبجانب هذه الثلاثة وجوه ، لنا ثلاثة علوم مختلفة :

١ – أن الكسوف معدوم وسيكون .

٢ – أنه كائن .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ، لابن سينا ، ج٢ ص٧٩ بتصرف .

(٢) ابن رشد وفلسفته الدينية ، صـ١١٩ بتصرف .

٣ – أنه كان وليس كائنًا الآن .

وهذه العلوم الثلاثة متعددة ومختلفة، وتعاقبها على المحل يوجب تغير الذات العالمة .

* فإنه لو علم بعد الانجلاء أن الكسوف موجود الآن، كما كان قبل، كان جهلاً لا علمًا .

* ولو علم عند وجوده أنه معدوم ، كان جهلاً ، فبعض هذه لا تقوم مقام بعض .

فزعم أن الله تعالى لا يختلف حاله في هذه الأحوال الثلاثة، فإنه يؤدى إلى التغير، وما لم تختلف حاله لم يتصور أن يعلم هذه الأمور الثلاثة، فإن العلم يتبع المعلوم .

أي : إذا تغير المعلوم تغير العلم .

وإذا تغير العلم فقد تغير العالم لا محالة .

والتغير على الله تعالى محال .

ومع هذا زعم أنه يعلم الكسوف ، وجميع صفاته وعوارضه ، ولكن علمًا يتصف به في الأزل ، ولا يختلف .

مثال: أن يعلم مثلاً أن الشمس موجودة وأن القمر موجود ، وأنهما حصلا منه بواسطة الملائكة– التي سماها باصطلاحه عقولاً مجردة– ويعلم أنها تتحرك حركات دورية، ويعلم أن بين فلكيهما تقاطعًا على نقطتين هما الرأس والذنب وأنهما يجتمعان في بعض الأحوال في العقدتين ، فتنكسف الشمس ، أي يحول جرم القمر بينها وبين أعين الناظرين، فتستتر الشمس عن الأعين .

وأنه إذا جاوزت العقدة مثلاً بمقدار كذا، وهو سنة مثلاً، فإنها تنكسف مرة أخرى، وأن ذلك الانكساف يكون في جميعها، أو ثلثها، أو نصفها، وأنه يمكث ساعة أو ساعتين .

وهكذا إلى جميع أحوال الكسوف وعوارضه .

إذن نجد لا يعزب عن علمه شيء ، ولكن هذا العلم قبل الكسوف .

وهكذا مذهبهم فيما ينقسم : بالمادة والمكان ، كأشخاص الناس والحيوانات ، فإنهم يقولون لا يعلم عوارض : زيد وعمرو وخالد ، وإنما يعلم الإنسان المطلق بعلم كلى (١) .

فيقول ابن سينا : أن علم الأول هو من ذاته ، وذاته سبب للأشياء كلها على مراتبها ، فعلمه بالأشياء هو نفس وجودها ، فهو يعلم الأشياء التي لم توجد به ، على أنها لم توجد بعد ، ويعرف أوقاتها ، وأزمنتها ، وإذا وجدت تلك الأشياء لم يتجدد علمه بها ، فيستفيد من وجودها علمًا سابقًا .

وهو يعرف كل شخص على وجه كلى معرفة بسيطة ، ويعرف وقته الذى يحدث فيه على الوجه الكلى .

وكما يعرف هذا الكسوف على الوجه الكلى ، ويعرف المدة التي تكون بين الكسوفين على الوجه الكلى ، ولا يجوز أن يدخل علمه الماضي والحاضر والمستقبل من الزمان (٢) .

فهو يعلم الأشياء جزئيها وكليها ، على ما هو عليه من جزئيته وكليته ، وثباته وتغيره ، وكونه وحدوثه وعدمه ، وأسباب عدمه ، ويعرف الأبديات على ما هي عليه من أبدية ، والحادثات على ما هي عليه من حدوث ، ويعرفها قبل حدوثها ، ومع حدوثها ، وبعد حدوثها بعللها ، وأسبابها الكلية، ولا يفيده حدوثها علمًا لم يكن، كما نحن لا نعلم الأشياء قبل حدوثها ، فكلها حاضرة له، فإن ذاته سببها. ويعرف الجزئيات والشخصيات بأسبابها

---

(١) تهافت التهافت ، لابن رشد ، تحقيق سليمان دنيا ، صـ٦٩٠ - ٦٩٣ بتصرف .

(٢) التعليقات، ابن سينا، تحقيق د/عبدالرحمن بدوى ، صـ٦٦ ، ٦٧ بتصرف ، ط ١٩٧٣ م .

وعللها ، على الوجه الذى لا يتغير به علمه ولا يبطل ، وإن تغير الجزئيات والشخصيات ، فإنه لا يعرفه كما نعرفه نحن بإدراك الحس له ، وبالإشارة إليه ، بل يعرفه بالأسباب الموجودة له ، المؤدية إليه ، التي لا تتناول هذا الجزئي .

وهذا الشخص بعينه من حيث يكون مشارًا إليه متخيلاً ، فهو يعرف هذا الشخص بأسبابه وعلله المشخصة له ، فيكون علمه لا يتغير ، وإن تغير الشخص وبطل . ويعرف جميع أحواله الحادثة له ، ويعلم أنها تكون حادثة له ولا يتغير علمه بها لأنه يعرفها بأسبابها ، ويعرف عدمه بأسبابه المقومة له [١] .

والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها من كل ما سبق : أن ابن سينا يرى أن الله لا يعلم الوقائع الجزئية، لأنه علمه بها وهى متغيرة الأحوال يؤدى إلى تغير في صفاته.

وهذه النتيجة هي التي سجلها الغزالي ، على ابن سينا وقال: أن ابن سينا يرى أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم الجزئيات .

ولكنى أرى تعارضاً بين رأى الغزالي ورأى ابن سينا في النتيجة التي وصل إليها الغزالي ، ولذلك نرى نص ابن سينا يقول فيه :

(ويجب أن يكون عالمًا بكل شيء ، لأن كل شئت لازم بوسط أو بغير وسط يتأدى إليه بعينه قدره الذى هو تفصيل قضائه الأول تأديًا واجبًا إذا كان ما لا يجب لا يكون كما علمت) .

هذا النص يؤكد على أن ابن سينا يعلم العالم بشيء تفصيلي ، وذلك من خلال نصه ، نجد أنه يرى أن الأشياء صدرت عن الله بطريق الاقتضاء .

---

(١) المرجع السابق ، صـ٨١ .

فوجود الله الواحد اقتضى صدور شيء واحد عنه ، ووجود هذا الشيء الواحد اقتضى وجود أشياء متعددة عنه لتعدد في جهاته أو هكذا نشأ العالم على هذا النحو فهو سلسلة لوازم وملزومات .

ويرى ابن سينا أن الله يعلم نفسه بالقصد الأول ، وهو إذا علمها علم أنها علة للصادر عنها ، فيعلم الصادر عنها بالقصد الثاني، وإذا علم الصادر الأول علم أنه علة لثلاثة أشياء صدرت عنه فيعلم هذه الثلاثة، وإذا علمها علم ما استلزمته، وهكذا يكون علم الله عالمًا بالعالم كله علمًا تفصيليًا ، لأنه حينما قسم التغيرات إلى ثلاثة أنواع:

١ – نوع يؤدى إلى تغير صفة متقررة .

٢ – ونوع ثان يؤدي إلى تغير في إضافة الصفة لا في الصفة ، وذلك كأن يصير القادر على تحريك الشيء الموجود ، غير قادر عليه حين يُعدم الشيء ، ففي الواقع لم يطرأ على ذات القادر تغيرًا أصلاً .

٣ – نوع ثالث يؤدى إلى تغير في صفة متقررة في ذات الشيء ، هي ذات

إضافة كصيرورة العالم بأن الشيء موجود عالمًا بأنه غير موجود ، حين ينتقل الشيء من وجود إلى عدم .

لذلك كان ابن سينا واضحًا وصريحًا كل الصراحة عندما قرر :

(أن ما ليس موضوعًا للتغير– وهو الله مثلاً– لا يجوز أن يعرض له تبدل بحسب القسم الأول، ولا بحسب القسم الثالث، وأما بحسب القسم الثاني فقد يجوز في إضافات بعيدة لا تؤثر في الذات) [١] .

---

(١) الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، ج٢ ص٨١ بتصرف.

ونجد الطوسي وهو شارح الإشارات والتنبيهات ، وهو محب لابن سينا متفان في حبه ، ورغم ذلك بأنه قال إن ابن سينا ينفى علم الله بالجزئيات ، ولم يدر بخاطر الطوسي أن في نص ابن سينا احتمالاً ولو ضعيفًا ، لفهمه على وجه آخر غير الوجه الذى يفيد إنكار علم الله بالجزئيات .

وخلاصة قول الطوسي أن ابن سينا يرى أن العلم بالجزئيات على وجه جزئيتها ، يؤدى إلى التغير في صفة العالم ، وأن العقل المجرد يستحيل عليه التغير ، لأنه عقل مجرد ، وأن الله يستحيل عليه التغير لأن التغير يتنافى مع كماله [١] .

ولكن نرى أن صاحب المحاكمات ، ويؤيده الشيخ محمد عبده يعترضان على الطوسي فيما ذهب إليه .

فالقضية ثابتة : إما على وجه الكلية ، أو على وجه الجزئية فقط ، فلا يقع التعميم ثم التخصيص ، أي أن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول، ولا يوجب الإحساس به ، وإدراك الجزئيات المتغيرة ، أو المتشكلة من حيث هي متغيرة ، أو متشكلة لا يمكن إلا بالآلات الجسمانية كالحواس وما يجرى مجراها .

والشيخ محمد عبده يجول مع الطوسي وصاحب المحاكمات ، ومع الفارابي ، وابن سينا ، ويؤكد الشيخ محمد عبده تبعًا لصاحب المحاكمات أن ابن سينا يرى أن الله يعلم الجزئيات ويقول أن القول بغير ذلك رمى عن جهالة [٢] .

---

(١) التعليقات ، ابن سينا ، ص٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص٩٣ ، ٩٤ بتصرف .

تعقيب على رأى ابن سينا :

إذا كان ابن سينا يذهب إلى أن الله لا يعلم الجزئيات ، حيث إنه فيلسوف ، فهذا أمر ليس غريبًا على الفلسفة ، ولكن لا نكفره فيه إنما نقول هل هو مصيب أم مخطئ ؟ وأرى أن ابن سينا تورط في النتيجة وفى المقدمات التي أوصلته إليها.

من حيث تورطه في النتيجة :

فلأن إلهًا له كل صفات الكمال – كما يقول ابن سينا نفسه – ولا يكون عالمًا بأكثر ما يحدث في عالمه الذى خلقه ، هو إله كامل ناقص في الوقت ذاته ، وهذا لم يقله ابن سينا ، ولا أظنه يستطيع أن يقول : إن العلم بالجزئيات في ذاته نقص ، ولكنه نقص في رأيه باعتبار ما يلزمه من التغير .

وإذن لو أمكن أن يعلم الله الجزئيات من غير أن يتأدى العلم بها إلى تغير في ذاته ، فماذا عسى أن يبرر به ابن سينا أو غيره رأيه إذا اختار أن يقول إن الله لا يعلمها ؟ ولعل الذى دعا ابن سينا إلى نفى العلم بالجزئيات عن الله ، قياسه علم الخالق على علم المخلوق ، ولكن شتان ما بين العلمين .

فعلم المخلوق أنف يعلم الشيء بعد أن لم يكن يعلمه ، فينتقل من جهل إلى علم ، وينسى ما قد علمه ، فينتقل من علم إلى جهل .

ولو كان الإنسان أزليًا ، وكان له علم أزلي لكان ما يحدث له لا ينقله من جهل إلى علم ، فكون علم الله أزليًا وكون علم الإنسان أنفًا ، هو الفارق الذى جعل الإنسان متغيرًا ، وجعل الله غير متغير .

فلا ينبغي أن يفزع ابن سينا من أن يكون الله عالمًا بالجزئيات ، فإن ذلك لن يحدث في ذاته تغيرًا ، لأن المسألة ليست إلا كمرآة ذات ثلاث وجهات :

في أولها : علم بكل ما سيكون فيها مثلاً : علم بأن القمر سوف ينكسف غدًا .

وفي ثانيها : علم بكل ما هو كائن فعلاً ، فالقمر الذى سينكسف غدًا ليس له فيها وجود ، فإذا جاء الغد انتقل العلم بانكساف القمر من الواجهة الأولى إلى الواجهة الثانية ، لأنه إذا جاء الغد انتقل علم الله به من كونه علمًا بما سيكون إلى كونه علمًا بما هو كائن .

إذ لا يصح أن يظل الله بعلمه على أنه سيكون فيما بعد ، بينما هو كائن فعلاً .

وفي ثالثها : علم بما كان فإذا مرَّ اليوم الذى كان يسمى وهو في الواجهة الأولى "مستقبلاً" وكان يسمى وهو في الواجهة الثانية "حاضرًا" انتقلت صورة انكساف القمر إلى الواجهة الثالثة التي تحتفظ بصور ما فات .

ونختم هذا المقام بتقرير أن ابن سينا لم يكن لديه من الأسس ما يبرر له البت بصفة قاطعة في هذا الأمر الخطير .

المبحث الثالث
رأى الغـزالـي

نبذة مختصرة عن حياته :

الغزالي هو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (أبوحامد الغزالي)، وُلد بطوس عام٤٥٠هـ خمسين وأربعمائة من الهجرة، وكان والده يغزل الصوف ، ولذا لُقِّب بذلك ، قرأ في صباه طرفًا من الفقه ثم سافر إلى جرجان وقدم نيسابور ، ولازم إمام الحرمين الجويني ، جدَّ واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأَحكَمَ كل هذا .

وقدم بغداد عام ٤٨٤ هـ ودرس بالنظامية ، وقام بالشام نحو عشرين عامًا .

وتوفى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخر عام ٥٠٥ هـ وله مؤلفات كثيرة متنوعة منها: الإحياء، والتهافت، والاقتصاد في الاعتقاد وغيرها كثير [(١)] .

رأى الغزالي :

نرى الإمام الغزالي يتخذ مسألة العلم الإلهي لدى فلاسفة المسلمين سبيلاً إلى الحكم بتكفيرهم ، ورميهم بالخروج عن مبادئ الإسلام ، تلك المبادئ التي تقرر وتؤكد خير تأكيد أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا. وخاصة رمى الفارابي وابن سينا بنفيهم علم الله

(١) راجع معجم المؤلفين ، عمر كحالة ، جـ٦ صـ١٩١ - ٢١١ .

بالجزئيات. يقول في ذلك: "لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمان إلى الكائن وما كان وما يكون"(١). فقد زعم ابن سينا أن الله يعلم الأشياء علمًا كليًا لا يدخل تحت الزمان ولا يختلف بالماضي والمستقبل والآن .

ومع ذلك زعم أنــه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الســماوات ولا في الأرض ، إلا أنه يعلم الجزئيات بنوع كلي. ويجــب علينــا أن نوضــح أولاً مذهبــهم ، ثم الاشــتغال بالاعتراض .

وتوضيح ذلك : مثال أن الشمس مثلاً تنكسف بعد أن لم تكن منكسفة ثم تنجلي فتحصــل لها ثلاثة أحوال – أي ثلاثة أحوال للكسوف –

١ – حال هو فيها معدوم ، منتظر الوجود أي سيكون .

٢ – حال هو فيها موجود ، أي هو كائن .

٣ – وحال ثالثة هو فيها معدوم ، ولكنه كان من قبل وبجانب هذه الأحوال الثلاثة ثلاثــة علوم مختلفة ، فأنا تعلم أولاً أن الكسوف معدوم وسيكون ، وثانيًا أنه كائن ، وثالثًــا أنــه كان وليس كائنًا الآن .

وهذه العلوم الثلاثة متعددة ومختلفة ، وتعاقبها على المحل يوجب تغير الذات العالمة ، فإنه لو علم بعد الانجلاء أن الكسوف موجود الآن كما كان قبل ، لكان جهلاً لا علمًا ، ولــو علم عند وجوده أنه معدوم لكان جاهلاً ، وبعض هذه لا يقوم مقام بعض ، فزعموا أن الله تعالى لا تختلف حاله في هذه الأحوال الثلاثة ، لأنه يؤدى إلى التغير ، وما لم تختلف حالــه لم

---

(١) تهافت الفلاسفة ، الغزالي ، تحقيق د / سليمان دنيا ، صــ٢٠٤ ، ط ٣ .

يتصور أن يعلم هذه الأمور الثلاثة ، لأن العلم يتبع المعلوم ، وذلك إذا تغير المعلوم تغير العلم ، وإذا تغير العلم فقد تغير العالم لا محالة ، والتغير على الله محال .

وكذلك علمه بجميع الحوادث فإنها إنما تحدث بأسباب، وتلك الأسباب لها أسباب أخرى، حتى تنتهى إلى الحركة الدورية السماوية، وسبب الحركة الدورية نفس السموات وسبب تحريك النفوس الشوق إلى التشبه بالله تعالى والملائكة المقربين ، فالكل معلوم له أي منكشف له انكشافاً واحدًا متناسبًا لا يؤثر فيه الزمان .

وأيضًا مذهبهم فيما ينقسم بالمادة والمكان كأشخاص الناس والحيوانات، فيقولون أنه لا يعلم عوارض زيد وعمرو وخالد ، وإنما يعلم الإنسان المطلق بعلم كلى، ويعلم عوارضه وخواصه أي يعلم كل صفة في خارج الآدمي وباطنه وكل ما هو من لواحقه وصفاته ولوازمه حتى لا يعزب عن علمه شيء ويعلمه كليًا .

مثال: أن زيدًا لو أطاع الله تعالى أو عصاه، لم يكن الله عز وجل عالمًا بما يتجدد من أحواله، لأنه لا يعرف زيدًا بعينه فإنه شخص وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن ، وإذا لم يعرف الشخص لم يعرف أحواله وأفعاله، بل لا يعرف كفر زيد ولا إسلامه، وإنما يعرف كفر الإنسان وإسلامه مطلقًا كليًا ، لا مخصوصًا بالأشخاص .

وذلك هو مذهبهم ولنا أوجه بطلان على هذا المذهب (١) .

الوجه الأول :

فإنه يقول بم تفكرون على من يقول أن الله تعالى : له علم واحد بوجود الكسوف مثلاً في وقت معين ، وذلك العلم قبل وجوده علم بأنه سيكون ، وهو بعينه عند الوجود علم

(١) تهافت الفلاسفة ، الغزالي ، صـ ٢٠٤ : ٢٠٩ (بتصرف) .

بأنه كائن ، وهو بعينه بعد الانجلاء علم بالانقضاء ، وأن هذه الاختلافات ترجع إلى إضافات لا توجب تبدلاً في ذات العلم، فلا توجد تغيرًا في ذات العالم . فإن ذلك يترل الإضافة المحضة .

مثال : فإن الشخص الواحد يكون عن يمينك، ثم يرجع إلى قدامك ، ثم إلى شمالك ، فتتعاقب عليك الإضافات، والمتغير ذلك الشخص المنتقل دونك .

وإذا جاز أن لا توجب العلم بالأنواع والأجناس والعوارض الكلية تغيرًا ، يجوز أن لا يوجب العلم بأحوال الشيء الواحد المنقسم الزمان تغيرًا ، لأن الاختلاف والتباعد بين الأجناس والأنواع المتباعدة، أشد من الاختلاف الواقع بين أحوال الشيء المنقسم .

الوجه الثاني :

وفيه يقارن بين علم الله القديم وبين العالم .

فيقرر الغزالي بأن الفلاسفة يعتقدون قدم العالم ، ويقررون بأنه لا يخلو من الحوادث ، وإذا جاز قيام الحادث بالقديم – مطلقًا – فلم تقصرونه على العالم ولا تجوزونه على علم الله. ويذكر الغزالي أن الفلاسفة لا يملكون دفع هذه الإلزامات ، بحجة أن العلم الحادث في ذاته لا يخلو إما أن يحدث من جهته ، أو يحدث من جهة غيره ، فإن حدث من جهته كان صدورًا للحادث القديم ، وهذا محال في نظرهم مع أهم يلزمهم كما سبق ، وإن حدث من جهة غيره كان ذلك الغير مؤثرًا فيه ، لأن الفلاسفة يقرون حدوث حادث من قديم ، بشرط ألا يكون أول الحوادث ، كما أنه ليس بمستحيل على مذهبهم أن يكون مصدر العلم خارجًا عن ذاته ، لأنه يترتب عليه أمور تلزمهم منها :

١ – القول بالتغير الذاتي وقد لزمهم ذلك .



٢ – كون غيره سببًا في تغيره هذا يلزمهم أيضًا ، لأن القديم سيكون سببًا في حدوث الحوادث بوسائط ، ثم يكون حدوث هذه الوسائط سببًا لحدوث العلم .

٣ – وليس للفلاسفة في نظر الغزالي أن يقولوا أن علم الله إذا كان مصدره خارجًا عنه يكون علمًا اضطراريا فذلك يشبه التسخير .

وليس من حقهم أن يحتجوا بأن كمال الله سبحانه وتعالى مصدر لجميع الأشياء، وصدورها عنه مما يقتضيه طبيعته ذاته، ولذلك يقال لهم أن كماله في أن يعلم جميع الأشياء[1].

(١) المرجع السابق ، صـ٢١١ : ٢١٥ ، بتصرف شديد .

المبحث الرابع
رأى ابن رشد

نبذة مختصرة عن حياته :

هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، مولده ومنشؤه بقرطبة ، مشهور بالفضل ، معتن بتحصيل العلوم ، أوحد زمانه في علم الفقه والخلاف . اشتغل على الفقيه الحافظ أبي محمد بن رزق ، وكان أيضًا متميزًا في علم الطب ، وهو جيد التصنيف حسن المعاني ، ومن مؤلفاته : فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة ، وتهافت التهافت ، توفى سنة ٥٩٥هـ [١].

رأى ابن رشد :

لما جاء ابن رشد واطلع على رأى الفلاسفة ، وموقف الغزالي منهم ، قرر أن الغزالي أخطأ في فهم فلاسفة الإسلام ، وأن هؤلاء الفلاسفة لم يجحدوا علم الله بها ، وإنما جحدوا العلم الشبيه بعلم الحوادث ، وهو العلم المعلول للموجودات هو الذى يؤدى إلى حدوث التغير في العلم [٢] .

---

(١) راجع دائرة المعارف، ج١ ص١٦٦-١٧٥،ط الثانية ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م، نقلها إلى العربية محمد ثابت أفندى .

(٢) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ، د / زينب أبو المعالى ، صـ١٥٣ .

تلك هي مشكلة العلم الإلهي التي سلك فيها ابن رشد في حلها مسلكًا فريدًا ، بأنه قال إنها مشكلة مزعومة ، لأن الفلاسفة السابقين لم يفرقوا تفرقة حاسمة بين العلم الإلهي والعلم الإنساني [(١)] .

أي أنهم جعلوا هناك تشبيهاً بين علم الخالق سبحانه وتعالى وبين علم الإنسان ، وقياس أحد العلمين على الثاني ، لأن إدراك الإنسان للأشخاص بالحواس وإدراك الموجودات العامة بالعقل [(٢)] .

أي لم يستخدموا طريقة التتريه على النحو الذى كان ينبغي لهم أن يفعلوه .

ولذلك أخذوا يطبقون على العلم الأول بعض أوصاف العلم الثاني [(٣)] .

يقول ابن رشد : إن الله لا يعلم من العالم إلا كلياته ، كالأجناس والأنواع ، أما مفرداتها وجزئياتها التي تحدث في هذا العالم ، فلا علم للإله بها ، أي بعلم مشابه لعلمنا بها [(٤)] .

بمعنى أن يكون معلولاً عنها حادثًا بحدوثها ، وإنما يعلمها بنوع من العلم يكون علة لوجودها ، وتكون هي معلولة عنه ، وهذان العلمان مختلفان ، فلا يصح تشبيه أحدهما بالآخر .. لأن ذلك غاية الجهل .

والكلية والجزئية في نظر ابن رشد هي وصف للمعلوم فقط .

أما علم الله فلا ينبغي أن يوصف بكلى أو بجزئي .

---

(١) ابن رشد وفلسفته الدينية ، د / محمد بيصار صـ١٢٠، بتصرف .
(٢) تهافت التهافت ، ابن رشد ، تحقيق د / سليمان دنيا ، صـ٦٦٩ ، بتصرف .
(٣) فلسفة ابن رشد الدينية ، صـ١٢٠ .
(٤) المرجع السابق ، صـ٧٢ .

ونجد أن المتكلمين لم يكونوا أسعد حظًا من الفلاسفة ، فقد أرادوا تتريه علم الله عن الحوادث ، فقالوا : إن الله يعلم الأشياء التي يخلقها علمًا قديمًا .

والسبب في ذلك إذا كانوا يقولون من جانب بأن علم الله للأشياء الحادثة قديم ، فإنهم يقولون من جانب آخر ، لأن ما يقارن الحوادث فهو حادث مثلها .

ولذلك إذا جمع الرجل العامي بين هاتين المقدمتين، فلربما غلب على ظنه حدوث علم الله، أو رأى على الأقل أن هناك تناقضًا بين هذين الرأيين، وإذا فهم ذلك فله العذر كل العذر، لأن المتكلمين لم يحرصوا على التفرقة لهذا العامي بين علم الله وعلم الإنسان، ولذلك يعتقد أن علمه بالشيء قبل حدوثه يختلف عن علمه به وقت حدوثه أو بعد حدوثه.

ومن ذلك يظهر مسلك المتكلمين هنا في مظهر البدعة ، ولهذا السبب ومن أجله يتهمهم ابن رشد بأنهم مبتدعون بل مضلون أيضًا ، لأنهم بقولهم عدم التفرقة بين علم الله وعلم الإنسان بهذا القول يصرحون للعامة بنظريتهم التي توشك أن تقود إلى البدعة والضلال ، فمن الواجب ألا يصرح للجمهور بأن علم الله قديم أو حادث ، وينبغي أن يقال لهم لا سبيل إلى المقارنة بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

أما العلماء فيعرفون حق المعرفة وعن طريق البرهان ، أن علمه تعالى قديم ، لأنه لا يخضع للزمن، لأن جميع الأزمنة ماضي وحاضر ومستقبل يعلمها كلها لحظة واحدة، فانكشف للخالق كل ما يخلق دون حاجة إلى تجدد علمه كما يحدث للإنسان الذى يعلم أشياء كان يجهلها [1] .

لأن حدوث التغير في العلم عند تغير الموجود إنما هو شرط في العلم المعلول عن الموجود ، وهو العلم المحدث .

---

(١) المرجع السابق ، صـ ١٢٠ ، بتصرف .

فالعلم القديم إنما يتعلق بالموجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث ، لأنه غير متعلق أصلاً كما قال عن الفلاسفة أهم يقولون إنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ، وليس الأمر كما توهم عليهم ، ولكن يرون أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذى من شرطه الحدوث بحدوثها إذ كان علة لها لا معلولاً عنها كالحال في العلم المحدث ، وهذا هو غاية التتريه الذى يجب أن يعترف به [١] .

ومن ذلك يبرز لنا ابن رشد الفرق الواضح بين علم الله تبارك وتعالى وبين علم الإنسان فيقول أن :

١- علم الإنسان تابع للمعلوم ، ومسبوق بالجهل ويحصل بعد أن لم يكن حاصلاً.

وأما علم الله فليس كذلك ، بل هو سابق على المعلوم لأن وقوعه يكون موافقًا له ، وإذا كان كذلك فهو لم يسبق بجهل .

٢ – أن علم الإنسان نسبي محدود ويعتريه الزوال والنسيان ، أما علم الله فليس كذلك ، بل هو مطلق وحاضر دائمًا وأبدًا .

وإذا كان الأمر كذلك فنجد أنه ليس علم الله وعلم الإنسان إلا مجرد الاشتراك الإسمي، وأما الحقيقة والكيفية فمختلفة تمامًا . ونراه هنا يقرر أن علم الله معنى لا ينبغي أن يوصف بالكلية أو الجزئية، لأن هذه مقولات نسبية لا تتفق مع كون علمه سبحانه وتعالى علمًا مطلقًا [٢] .

---

(١) فصل المقال، ابن رشد، ص٣٩، وراجع دراسات في الفلسفة الإسلامية، د/زينب أبو المعالى، ص٥٣ بتصرف .

(٢) تهافت التهافت ، ابن رشد ، ص٤٤٠ ، وراجع موقف المشائية الإسلامية من النص الديني ، د / إنشاد محمد على ، ص١٥٤ ، ١٥٥ ، بتصرف .

وقد قرر هذا في نصه الذى يشير فيه إلى الفرق الواضح بين طبيعة العلم الإلهي والعلم الإنساني فيقول ابن رشد :

" الأول سبحانه هو الذى يعلم طبيعة الوجود بما هو موجود بإطلاق ، الذى هو ذاته فلذلك كان اسم العلم مقولاً على علمه سبحانه وعلمنا باشتراك الاسم .

وذلك أن علمه هو سبب الموجود ، والموجود سبب علمنا، فعلمه سبحانه لا يتصف لا بالكلى ولا بالجزئي، لأن الذى علمه كلى فهو عالم بالجزئيات التي هي بالفعل بالقوة ، فعلمه ضرورة هو علم بالقوة إذا كان الكلى إنما هو علم بالأمور الجزئية، وإذا كان الكلى هو علم بالقوة ولا قوة في علمه سبحانه فعلمه ليس بكلى، وأبين من ذلك ألا يكون علمه جزئيًا لأن الجزئيات لا نهاية لها ولا يحصرها علم " [1] .

ثم يتحدث ابن رشد عن وجه دلالة العلم الإلهي في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [2] .

وجه الدلالة: أن المصنوع يدل من جهة الترتيب الذى في أجزائه، أعنى كون صنع بعضها من أجل بعض، ومن جهة موافقة جميعها للمنفعة المقصودة بذلك المصنوع أنه لم يحدث عن صانع هو طبيعة وإنما حدث عن صانع رتب ما قبل الغاية قبل الغاية فوجب أن يكون عالمًا به.

ومثال ذلك :

أن الإنسان إذا نظر إلى البيت فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط ، وأن الحائط من أجل السقف ، تبين أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء .

---

(١) المرجع السابق ، صـ ٤٤٠ .

(٢) سورة الملك ، آية ١٤ .

وهذه الصفة هي صفة قديمة وإذا كان لا يجوز عليه سبحانه أن يتصف بها وقتًا ما ، لكن ليس ينبغي أن يتعمق في هذا فيقول كما يقول المتكلمون إنه يعلم المحدث في وقت حدوثه بعلم قديم ، فإنه يلزم على هذا أن يكون العلم بالمحدث في وقت عدمه وفي وقت وجوده علمًا واحدًا وهذا أمر غير معقول .

إذا كان العلم واجبًا أن يكون تابعًا للموجود، ولما كان الموجود تارة يوجد فعلاً وتارة يوجد قوة وجب أن يكون العلم بالموجودين مختلفًا، إذ كان وقت وجوده بالقوة غير وجوده بالفعل، وهذا شيء لم يصرح به الشرع، بل الذى صرح به خلافه وهو أنه يعلم المحدثات حين حدوثها كما في قوله تعالى: ﴿.. وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (١) .

فينبغي أن يوضح في الشرع أنه عالم بالشيء قبل أن يكون على أنه سيكون ، وعالم بالشيء إذا كان على أنه قد كان ، وعالم بما قد تلف أنه تلف في وقت تلفه ، وهذا هو الذى تقتضيه أصول الشرع .

والجمهور لا يفهمون إلا هذا المعنى ، وليس عند المتكلمين برهان يوجب أن يكون بغير هذه الصفة إلا أنهم يقولون : إن العلم المتغير بتغير الموجودات هو محدث والباري سبحانه وتعالى لا يقوم به حادث ، لأن ما لا ينفك عن الحوادث زعموه حادثًا ، وقد بينا نحن كذب هذه المقدمة .

---

(١) سورة الأنعام من آية ٥٩ .

فإذا الواجب أن تقر هذه القاعدة على ما وردت ، ولا يقال أنه يعلم حدوث المحدثات وفساد الفاسدات لا بعلم محدث ولا بعلم قديم ، فإن هذه بدعة في الإسلام (١) . ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٢) .

تعقيب على رأى ابن رشد :

نرى أن منهج ابن رشد في ذلك يقوم على أن الشرع يوجب النظر الفلسفي ، كما يوجب استعمال البرهان المنطقي لمعرفة الله تعالى وموجوداته .

فيقول ابن رشد: إن كان فعل الفلسفة ليس شيئًا أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، أعنى من جهة ماهي مصنوعات فإن الموجودات إنما تدل على الصانع أتم . وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك .

وخلاصة قول ابن رشد يرى أن القول بأن العلم الإلهي لا يوصف بالعموم ولا بالخصوص معناه أنه لا سبيل إلى المقارنة بينه وبين علم الإنسان ، وإذ لم يكن بد من وصف العلم الإلهي بإحدى هاتين الصفتين كان الوصف الوحيد الذى يتناسب مع كمال هذا العلم هو أن نقول أنه أشبه بالعلم الخاص أي المعرفة التي تتعلق بإدراك الأمور الجزئية ، لا المعرفة العامة ، وإنما كان ذلك أولى ، لأن علمه تعالى لا ينتقل من الجزئيات إلى الكليات شيئًا فشيئًا ، وكيف يتخيل بعضهم أن الله يدرك القوانين العامة فقط ، وهو يقول سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٣) .

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة ، ابن رشد ، صـ ٧٧ ، ٧٨ ، بتصرف .

(٢) سورة مريم ، آية ٦٤ .

(٣) سورة الملك ، آية ١٤ .

لذلك يقول ابن رشد :

" لا يجوز في علمه "الله" أن يوصف بأنه كلي ولا جزئي لأن الكلي والجزئي معلولان عن الموجودات وكلا العلمين كائن فاسد " (١) .

ولذلك نرى أن ابن رشد يعتبر عناية الإله بالكائنات من قبيل الناموس الثابت والضرورة الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل محتجًا بقوله تعالى : ﴿ .. وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ (٢) .إذ هي جارية على أحسن وضع وأقوم نظام في هذا الوجود .

والخلاصة مما تقدم :

١ – أن حقائق الأشياء ومهاياها إنما هي صورها التي هي وجوداتها .

٢ – أن العالم حيوان مطيع لله تعالى.

٣ – أن كل جزء من أجزاء الوجود فاعل ومنفعل أو فاعل وقابل بحسب ما فيه من طبيعي الوجود .

٤ – أن العالم متغير منذ الأزل .

ولذلك يقال إنه من الواجب تتريه علم الله عن كل ما يُعد نقصًا في علم الإنسان (٣) .

ومما تقدم يظهر أن كلام ابن رشد أقرب إلى روح القرآن الكريم، حيث قرر أن الكتاب المقدس وقف عند إثبات صفة العلم لله تبارك وتعالى كما يليق بذاته .

---

(١) تهافت التهافت ، ابن رشد ، صـ٤٤٠ .

(٢) سورة الأحزاب من آية ٦٢ .

(٣) ابن رشد وفلسفته الدينية ، صـ١٢٢ .

وكأنه يعنى أن فلاسفة المشرق كانوا متجاوزين لمنهج القـرآن عنـدما تعرضـوا لهـذا العلم .

وعن حقيقة الخلاف بينهما إذن ليس خلافًا حقيقيًا ، بـل هـو خـلاف في التصـور ، وابن رشد أصدق تمثيلاً لروح الإسلام التي ترفض تعميـق المسـائل النظريـة إلى الحـد الذى يوسع هوة الخلاف بين أصحاب العقيدة الواحدة .

الفصل الثاني

المبحث الأول
رأى المستشرقين في العلم الإلهي

أولاً : رأى الخوجه زادة :

نبذة مختصرة عن حياته :

هو: مصطفى بن خليل البرسوي الملقب خوجة زاده الرومي ، المتوفى سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٧ م ، صاحب تهافت الفلاسفة ، ألفه بأمر السلطان محمد خان بن السلطان مراد خان للمحاكمة بين تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد (١) .

رأى الخوجه زادة والعلم الإلهي :

لقد كان صريحًا واضحًا في نقده قال ملخصًا حجة الفلاسفة ردًا على الغزالي : " قالوا : الجزئيات المتشكلة . . . لا يعلمها الأول تعالى من حيث هي جزئيات متشكلة بل يعلمها على وجه كلي . . . فإنه تعالى وإن كان يعلم جميع الحوادث الجزئية وأزمنتها الواقعة هي فيها ، لكنه يعلمها علمًا متعاليًا عن الدخول تحت الأزمنة . . . فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . . . وبهذا التحرير ظهر ضعف ما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله ، من أن هذه القاعة يعنى عدم علمه تعالى بالجزئيات على وجه كونها جزئيات ، يلزمها أن زيدًا لو أطاع الله ، أو عصاه ، لم يكن الله عالمًا بما يتجدد من أحواله ، لأنه لا يعرف

(١) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، ص١٨٩ ، وقيل : اسمه مصطفى بن يوسف بن صالح .

زيدًا بعينه . . . بل لا يعرف كفر زيد ولا إسلامه ، وإنما يعرف كفر الإنسان وإسلامه مطلقًا كليًا لا مخصوصًا بالأشخاص (١) .

ثانيًا : رأى توماس الاكوينى : (Saint Tomas Aquin)

فيلسوف وعالم باللاهوت، إيطالي (١٢٢٧ - ١٢٧٤ م) ، درس اللاهوت والفلسفة في عدة مدن أوربية - وخاصة في نابولي بإيطاليا ، حيث كانت أمهات المؤلفات الفلسفية الإسلامية ، ويعتبر أعظم الفلاسفة واللاهوتيين في العصر المدرس المسيحي . منحته الكنيسة الكاثوليكية لقب القديس . ترك العديد من الكتب التي يحاول فيها أن يوفق بين العقل والإيمان ، بين عقائد المسيحية ونظريات أرسطو (٢) .

نقول إن توماس قلد ابن رشد أيضًا في الاعتماد على التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، لكى يجد حلاً مناسباً لمشكلة العلم الإلهي: أيوصف بالعموم أم بالخصوص، بالقدم أم بالحدوث ، ومن العجب العجاب أن الحل كان متفقًا تمام الاتفاق مع أن التفرقة بين العالمين التي تعتبر أساسًا لذلك الحل ، أكثر قبولاً في الإسلام منها في المسيحية ، وذلك بناء على ما يسلم به المسلمون والمسيحيون على حد سواء ، ومما يدعو إلى العجب أكثر لما عجبنا أن توماس الأكويني يتظاهر بأنه ينقد آراء ابن رشد ويهدمها ويبرهن على فسادها ويزعم أن فيلسوفنا كان ينكر علم الله بالجزئيات .

وحسبنا في الرد على هذه الأباطيل أن ندع الحديث لابن رشد نفسه حيث يقول :

---

(١) تهافت الخوجه زادة من تهافت ابن رشد ص٤٢-٤٣ ، نقلاً عن موقف المشائية الإسلامية ، صـ١٥٨.

(٢) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص٤٢ ، وأيضًا مجلة مجمع الفقه الإسلامي .

" فإذًا العلم القديم [علمه سبحانه] يتعلق بالوجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث [علم الإنسان] . . . وهذا هو غاية التتريه الذى يجب أن يعترف به . . . فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر لا بكيف وهو العلم القديم لله سبحانه [(١)] .

تعقيب على المشائية الإسلامية :

كيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات ، وهم يرون أنه سبب الإنذارات في المنامات والوحى وغير ذلك من أنواع الإلهامات، وهذا ما ظهر لنا في وجه حل هذا الشك وهو أمر لا مرية فيه ولا شك .

ولقد ظهر لنا رأى الفارابي وابن سينا من قضية العلم الإلهي نفيهم علم الله بالجزئيات كما فهم الغزالي، ولذلك رماهم بالتكفير ، ولكننا نرى رأى الطوسي وابن رشد وإنصافهم للفارابي وابن سينا بأهم لم يكن مرادهم نفى علم الله بالجزئيات ، ولذلك نرى مما عرضنا من آراء الفلاسفة المشائيين أنه لم يكن مرادهما نفى علم الله بالجزئيات كما فهم الغزالي ، لأن غاية ما انتهوا إليه ألا يكون للزمان أو للمكان أو لبقية العوارض المشخصة للمعلومات أثر في طبيعة هذا العلم ، ولكنهم ينطلقون من هذا الفهم ويستدلون ببعض الآيات التي تقرر عموم علمه سبحانه وتعالى بكل الجزئيات ، لأهم متأولون وأصحاب فهم خاص في المسألة دفعهم إليه إيماهم العميق بقضية التتريه الإلهي ، ولا نشك في صحة فهم الفلاسفة المشائيين لمعنى العلم الإلهي إذا قيس بتصورهم لحقيقة الذات الإلهية ، فإهم يرون أن الله سبحانه وتعالى عقل محض ، ومن كانت طبيعته كذلك فلا تدرك من الأشياء المشخصة إلا جانبها المعقول بغض النظر عن عوارضها المشخصة من الزمان والمكان والحجم . . إلخ ، ولأن إدراك تلك العوارض لا يكون إلا بآلات الحس ، والله سبحانه وتعالى متره عن ذلك

(١) ابن رشد وفلسفته الدينية ، صـ١٢٢ .

تمام التتريه [١]. وذلك إذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار وليس شيئًا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه وهذا هو القياس .

فيجب على المؤمن بالشرع الممتثل أمره بالنظر في الموجودات ، أن يتقدم قبل النظر فيعرف هذه الأشياء التي تتترل من النظر مترلة الآلات من العمل ، كما أن الفقيه يستنبط من الأمر بالتفقه في الأحكام ، وجوب معرفة المقاييس الفقهية على أنواعها .

ويقول العقاد في مسألة العلم والإرادة :

"يرى الفلاسفة المسلمون أنه لا تعارض بين كمال الله وعلمه بالجزئيات، لأن علم الله لا يتوقف على الجزئيات، بل الجزئيات هي التي تتوقف على علمه. أو كما قال ابن سينا أن الأشياء حصلت لأن الله قد علم بها، وليس علم الله بها تابعًا في حينها .

وقال أيضًا ابن سينا " أنه ليس يجوز أن يكون واجب الوجود يعقل الأشياء من الأشياء . . لأنه من ذاته يبدأ كل وجود فيعقل من ذاته ما هو مبدأ له ، وهو مبدأ للموجودات التامة بأعيانها ، وللكائنة الفاسدة بأنواعها أولاً وبتوسط ذلك بأشخاصها . . . " [٢] .

والواقع أن التسليم في المسائل الإلهية ، أمر يقتضيه العقل ولا يأباه ، لأن القياس أنما يكون فيما يقاس عليه ، وما ليس له شبيه ولا مثيل لا يقاس عليه وإلا كان القياس عرضه للخطأ والوهم والقصور .

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة ، ابن رشد ، صـ٣٩ .

(٢) الله ، العقاد ، صـ١٥٦ ، ١٥٧ .

المبحث الثاني
رأى الإسلام في علم الله بالجزئيات وآراء بعض المفسرين للآيات القرآنية

إن الله تعالى لا يعلم الماضي والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل أيضًا .

كما في قوله تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١) .

يقول صاحب صفوة التفاسير : أي ما يحدث في الأرض مصيبة من المصائب كقحط ، وزلزلة ، وعاهة في الزروع ، ونقص في الثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من الأمراض ، والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الأولاد ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي إلاّ وهى مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدها، قال في التسهيل: المعنى أن الأمور كلها مقدّرة في الأزل، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، وفى الحديث (إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)(٢) .

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٢ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٩٩ ، نقلاً من صفوة التفاسير ، الشيخ محمد على الصابوني ، م٣ ، صـ٣٢١ ، ٣٢٢ .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله عز وجل وإن كان عسيرًا على العباد [1] .

وفى القرآن آية يرى بعضهم أنها تشير إلى العقل الباطن واللاشعور :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [2] .

يقول الإمام الرازي: وفيه قولان: أحدهما: أن قوله ﴿ وَأَخْفَى ﴾ بناء المبالغة، وعلى هذا القول نقول إنه تعالى قسم الأشياء إلى ثلاثة أقسام: الجهر، والسر، والأخفى، فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به، وقد يسر في النفس وإن ظهر البعض ، وقد يسر ولا يظهر . . . ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذى لا يسمع وما هو أخفى منه فكيف لا يعلم الجهر ، والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة ، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب . . .

القول الثاني : أن أخفى فعل يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة : ٢٥٥].. واعلم أن الله تعالى لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات في كل الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير ، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفًا بالحدوث أو الإمكان [3] .

---

(١) صفوة التفاسير ، م٣ ، صـ٣٢٢ .

(٢) سورة طه ، آية ٧ .

(٣) التفسيرالكبير، الرازي، م١١،ج٢٢، ص٨،دارالكتب العلمية،بيروت،ط الأولى ١٩٩٠م.

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصورًا على ذاته كما يرى أرسطو ، وليس مقصورًا على الذات والكليات كما يرى بعض الفلاسفة ، ولكنه علم شامل للذات والكليات والجزئيات جميعها على الوجه التام ، كما في قوله تبارك وتعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

قال المفسرون : ما يلج في الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها السنابل والأحياء وما يترل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر : ١٠] وهذا تفصيل لبعض معلوماته جل وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز والأموات ، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار .. أي هو جلا وعلا العالم بما خفي عن الأبصار ، وغاب عن الأنظار ، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي ، ولا أصغر من الذرة ولا اكبر منها ، إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت ، ثم يعيدها يوم القيامة (2) .

---

(1) سورة سبأ ، الآيتان ٢ ، ٣ .

(2) انظر التفسير الكبير، م١٣ ج٢٥ ص ٢٠٧ ، ص٢٠٨ ، وأيضًا صفوة التفاسير م٢ ص٤٤٢، بتصرف .

وقال ابن كثير: أي لا يغيب عنه أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء [١] .

وكما هو معلوم لنا ومعروف في الإسلام، أن الله سبحانه وتعالى يعلم ، فهو يعلم ذاتـــه، ويعلم غيره، وغيره يشمل العالم وما يجري فيه مـــن أحداث، وعلمه لغيره كعلمه لذاته جل جلاله ، ولأنه سبحانه وتعالى خالق، لابد له أن يعلم ما يخلقه ، ولا يقف علمه بما يخلق عند وقت معين ولا مكان معين فعلمه إذن شامل لذاته ولغيره ومحيط بكل كـــائن لأن الله إذا لم يعلم غيره وهو هذا العالم فكيف يخلقه ويدبره ؟ [٢] .

ويدل على ذلك أنه يعلم ما خلقه قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٣].

فرأي ابن كثير في هذه الآية :

ألا يعلم الخالق ؟ وقيل معناه: ألا يعلم الله مخلوقاتـــه والأول أولى لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [٤] .

وقيل : أي ألا يعلم الخالق مخلوقاته ؟ كيف لا يعلم من خلق الأشياء وأوجدها سر المخلوق وجهره ؟ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي والحال أنه اللطيف بالعباد ، الذي يعلم دقـــائق الأمـــور وغوامضها ، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء ، فـــلا تتحـــرك ذرة ، ولا تســـكن أو تضطرب نفس إلا وعنده خبرها [٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـــ٣ ، صـــ٢ (بتصرف) .
(٢) الجانب الإلهي ، د/محمد البهي صـــ٣٩٧ ، مكتبة وهبه ط السادسة ١٩٨٢م (بتصرف).
(٣) سورة الملك ، آية ١٤ .
(٤) تفسير ابن كثير جـــ٣ صـــ ٥٢٨ .
(٥) صفوة التفاسير ، م٣ ، صـــ ٤١١ .

وقال الإمام الرازي : لو كان تعالى خالقًا لكل ما يفعلونه في السر والجهر فإنه لو لم يكن خالقًا لها لم يكن قوله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مقتضيًا كونه تعالى عالمًا بتلك الأشياء ، وإذا كان كذلك ثبت أنه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه ، فيلزم من كونه خالقًا لها كونه عالمًا بها ؛ لأن خالق الشيء يجب أن يكون عالمًا به[1] .

وهناك أيضًا بعض الآيات التي تفيد علم الله سبحانه وتعالى بالجزئيات والكليات ورأى بعض المفسرين لها قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

رأي ابن كثير :

أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وأنسهم. وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوسها إذا يبست[3] ، ونرى مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها ، والأرض التي تسقط عليها ، ولا حبة صغيرة في باطن

---

(١) التفسير الكبير ، الرازي م١٥ جـ٢٩ صـ ٥٩ ، ٦٠ (بتصرف) .

(٢) سور الأنعام آية ٥٩ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣صـ ١٥٨ .

الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أم لا ؟ وكم تنبت ؟ ومن يأكلها وقوله : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾أي ولا شيء فيه رطوبة ولا جفاف ، إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ . فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات ، وهذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط [١] .

ويقول الرازي عند تفسيره لنفس الآية : كونه تعالى عالمًا بجميع الجزئيات ؛ لأنه تعالى مبدأ لكل ما سواه ، وجب كونه مبدأ لهذه الجزئيات بالأثر [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [٣] .

ذكر الإمام الرازي : عند تفسيره لهذه الآية الكريمة أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله، والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان فنقول: الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيدًا مثلاً سيطيع وعمرًا سيعصى ، ثم وقت التكليف والإتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص، وبعد الإتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم وبيَّن لنا الإمام الرازي علم الله بمثال من الحسيات ولله المثل الأعلى فذكر : أن المرأة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسا ثوبًا أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أن المرأة في كونها حديدًا تغيرت ، أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت ،

---

(١) صفوة التفاسير م١ صـ ٢٦٨ .

(٢) التفسير الكبير م٧ صـ١٣ صـ ١٠ (بتصرف شديد) .

(٣) سورة العنكبوت آية ٣ .

أو يذهب فهمه إلى أنها في صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات، فافهم علم الله من هذا المقال، بل أعلى من هذا المثال، فإن المرأة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك وفي قوله:﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وفي حق الكافر "الكاذبين" باسم الفاعل .. . بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام لهذا قال ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (المائدة :١١٩) بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن في اليوم المذكور الصدق قد يرسخ في قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الإسلام [١] .

وذكر صاحب صفوة التفاسير: عبر عن الصادقين بلفظ الفعل ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾وعن الكاذبين باسم الفاعل ﴿ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد [٢] .

وذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية :

أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله : ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾إلا لنرى وذلك لأن الرؤية انما تتعلق بالموجود والعلم اعلم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود [٣] .

---

(١) تفسير الإمام الرازي م١٣ جـ٢٥ صـ ٢٦ ،٢٧ (بتصرف) .

(٢) صفوة التفاسير م٢ صـ ٣٥٥ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٦صـ ١٠٥ .

الخاتمة

لعل البحث على الصورة التي سبقت كشف تتبع جدة العرض والتصوير ، والاختلاف في عرض الموضوع وتصويره .

وأهم النتائج التي انتهى إليها هذا البحث ما يأتي:

١ - نرى أن الفارابي حاول التوفيق بين رأيه وبين ما جاء به الدين الحنيف، ولكن قصر العلم الإلهي على الكليات فقط لأنها ثابتة لا تتغير ، ونفي عنه العلم بالجزئيات .

٢ - يذهب ابن سينا إلى أن الله لا يعلم الجزئيات ، وأرى أن ابن سينا تورط في النتيجة وفي المقدمات التي أوصلته إليها ، وبناء على ذلك يكون ابن سينا بريئًا عما رماه الغزالي به من إنكار العلم بالجزئيات وبريئًا أيضًا من وصمة الكفر التي نشأت عند الغزالي من إنكار العلم بالجزئيات . لذلك نرى ابن رشد يخطئ أبا حامد فيما نسبه إلى الفلاسفة من القول بإنكارهم علم الله تعالى بالجزئيات- وقد سبق عرض رأيه في القضية .

٣ - نرى الإمام الغزالي يتخذ مسألة العلم الإلهي لدى فلاسفة المسلمين سبيلاً إلى الحكم بتكفيرهم ، ورميهم بالخروج عن مبادئ الإسلام ، واعتراضه عليهم بأن دليلهم قائم فقط على إثبات أن تغير العلم يستلزم تغير الذات وليس فيه بيان لكيفية علمه تعالى بالجزئيات .

٤ - أما ابن رشد يرى أن الغزالي أخطأ في فهم فلاسفة الإسلام ، وأن هؤلاء الفلاسفة لم يجحدوا علم الله بها ، وانما جحدوا العلم الشبيه بعلم الحوادث وهو العلم المعلول للموجودات ، وذلك لأن العلم المعلول للموجودات هو الذي يؤدي إلى حدوث التغير في العلم ، ويبرر لنا ابن رشد الفرق الواضح بين علم الله تبارك وتعالى وبين علم الإنسان - وقد عقبت على رأي ابن رشد بعد عرض رأيه .



٥ – اما رأي الخوجه زادة – من المستشرقين – كان صريحًا واضحًا في رده على الغزالي .

٦ – أما توماس الأكويني نرى انه قلد ابن رشد في الاعتماد على التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة .

٧ – ومما توصلنا إليه من آراء الفلاسفة بأنه لم يكن مرادهم نفي علم الله بالجزئيات ، كما فهم الغزالي ؛ لأنه غاية ما انتهوا اليه ألا يكون للزمان أو للمكان ، أو لبقية العوارض المشخصة للمعلومات اثر في طبيعة هذا العلم ، لأنهم متأولون وأصحاب فهم خاص ، دفعهم إليه إيمانهم العميق بقضية التتريه الإلهي .

٨ – ثم عرضت رأي الإسلام في علم الله بالجزئيات من خلال آراء بعض المفسرين المشهورين للآيات القرآنية التي تثبت وتؤكد علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة لجميع مخلوقاته فهو تعالى لا يعلم الماضي والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل أيضًا ؛ ولأنه سبحانه وتعالى خالق لابد له أن يعلم ما يخلقه ، ولا يقف علمه بما يخلق عند وقت معين ولا مكان معين .

فعلمه إذن شامل لذاته ، ولغيره ومحيط بكل كائن ؛ لأن الله إذا لم يعلم غيره وهو هذا العالم فكيف يخلقه ويدبره .

ثبت المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – ابن رشد وفلسفته الدينية، د/محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية ط٣ سنة ١٩٦٩م.

٣ – إخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين القفطي، مطبعة السعادة – القاهرة ١٣٢٦هـ .

٤ – الإشارات والتنبيهات ، ابن سينا جـ١صـ ٢ .

٥ – الله ، العقاد .

٦ – التسهيل لعلوم التنزيل .

٧ – التعريفات، السيد الشريف الجرجاني، تحقيق وتعليق د/عبدالرحمن عميرة.

٨ – التعليقات، ابن سينا ، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوي ط ١٩٧٣م .

٩– تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ج٣ص ٦–مكتبة الصفا ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

١٠– التفسير الكبير ، الامام الرازي م٧ ج١٣ ، م١١ ج٢٢ ، م١٣ ج٢٥ ، م١٥ ج٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى ١٩٩٠م .

١١ – تهافت الفلاسفة ، الغزالي – تحقيق د/ سليمان دنيا جـ٣ .

١٢ – تهافت التهافت ، لابن رشد – تحقيق سليمان دنيا .

١٣ – الجانب الإلهي ، د/ محمد البهي ، مكتبة وهبه ، ط السادسة ١٩٨٢م .

١٤ – دائرة المعارف – طبعة الشارقة .

١٥ – دراسات في الفلسفة الإسلامية ، د/ زينب أبو المعالي .

١٦ – صفوة التفاسير ، الشيخ محمد علي الصابوني م١ ، م٢ ، م٣ .

١٧ – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد– القاهرة ١٩٣٥م.

١٨ – القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

١٩ – كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، أبو نصر الفارابي ، قدم له وعلق عليه د/ ألبير نصري نادر ، ط الخامسة ، دار المشرق – بيروت .

٢٠ – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، ابن رشد ، القاهرة ١٩٣٥م .

٢١ – معجم المؤلفين ، عمر كحالة ج٦.

٢٢ – موقف المشائية الإسلامية من النص الديني د/ إنشاد محمد علي ، مكتبة شقرون .

٢٣ – النجاة، ابن سينا، القاهرة ١٣٩٧هـ .

٢٤ – فصوص الحكم ، الفارابي ، القاهرة ١٩٤٠م .

٢٥ – وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، طبعة بولاق ١٨٩٩م .

فهرس الموضوعات